المحاضرة السابعة :رثاء المدن و الممالك الإسلامية :

الرثاء: تفجع و بكاء، و ذكر لمآثر الميّت، و نوح على فضائله، التي اندثرت بزواله، و تحسّر على ما خلّفه فقده من فراغ، خاصة إذا كان الميت من أهل المروءات و المكرمات، و من أصحاب البطولات قال بعضهم : « إذا كان الدافع إلى المدح الطمع في جائزة , أو الثناء على إحسان , فإنّ الدافع إلى الرّثاء البرّ بالمرثيّ والوفاء له , فشعراء الرثاء أبرّ من شعراء المدح وأوفى ,وأنبل نفوسا وأصفى»[1]

وأشيع فنون الرثاء في العصر الجاهلي، رثاء الأفراد، فقد بكوا أقاربهم الذين فقدوهم، ورثوا أبطالهم الذين تركوهم، و أشرافهم الذين اعتدّوا بمناقبهم و مآثرهم

وفي العصر الإسلامي، كان الرثاء لعظماء الإسلام، الذين أناروا بهديهم سبل التائهين، فرثوا النّبيّ صلى الله عليه وسلم و صحابته كأبي بكر و عمر و عثمان.. . رضوان الله عليهم.

كما بكوا الشّهداء الذين قضّوا في المعارك إبّان الغزوات كحمزة الذين استشهد في أُحد و جعفر الطيّار الذي استشهد في غزوة مؤتة أو أولائك الشّهداء الذّين سقطوا في ميادين الوغى في أثناء الفتح الإسلامي كالقادسية في العراق أو فتوح الشام و مصر و غيرها..

1 ـــ **رثاء المدن:** هو بكاء و تحسّر على المدن التي خربت، و الأماكن التي حرقت و نهبت بفعل المتمردين أو الثائرين، أو التي سقطت في أيدي الأعداء كالصليبيين في المشرق و النّصارى الحاقدين في المغرب و الأندلس، بألفاظ حزينة و عبارات مجشيّة تدمي القلوب و تذيب الأفئدة الجامدة .

و هذا الغرض قديم، إذ نجد في كتاب الجمهرة لأبي زيد القرشي مرثية تبكي ملك الحميريين (ملوك اليمن قبل الإسلام) تنسب لعلقمة ذي جدن الحميري، و مما قاله:

لكلّ جنبٍ ما اجتنَى مُضطجعْ و الموتُ لا ينفعُ منه الجزعْ
فَسل جميعَ النَّاسِ عن حِميرٍ من أبصرَ الأقوالَ أو من سَمعْ
يُخبرْك ذو العلمِ بأن لم يزلْ لهم من الأيامِ يومٌ شَنعْ
اليومَ يُجزون بِأعمالِهِم كلُّ امرئ يَحصدُ ما قد زَرعْ
صاروا إلى اللهِب أعمالهِم يَجزي الذِّي خَان ومن ارتَدَعْ[2]

أما في العصر الإسلامي، فقد كثر رثاء الشّعراء لمدنهم و دولهم، سواء أتعرضت لغارات الثائرين الحاقدين، أو سقطت في أيدي أعداء الإسلام من النّصارى كما حدث مع مدن الأندلس.

---

[1] غازي طليمات، عرفان الأشقر،الشعراء في العصر الأموي، ص475 .

[2] أبو زيد القرشي، جمهرة أشعار العرب، ص128، 129.

فهذا الخريمي إسحاق بن حسّان المكنّى بأبي يعقوب، يتفجّع على مدينة بغداد، ويبكي بحرقة ما لحقها من دمار و خراب، حتى انفرط عقد أمنها، وفقدت جمالها و جلالها بعد الفتنة التي وقعت بين الأمين و المأمون ابنا الرّشيد حول الحكم ، فقال:

قالُوا و لم يلعب الزَّمان بِبغْ دَادَ وتَعثر بها عَواثرُها
إذْ هيَ مِثل العروسِ باطنُها مُشوَّق للفَتى وَظاهرُها
يا بؤسَ بغدادٍ دارَ مَملكةٍ دَارتْ عَلى أَهلِهَا دوائِرُهَا
أَمهلها اللهُ ثمَّ عاقبَها لمَّا أَحاطتْ بهَا كبَائِرُها [1]

أمّا ابن الرومي، فقد بكى مدينة البصرة التي أغار عليها الزّنج وأحرقوها، وقتّلوا أهلها و نكّلوا بهم، فهذا قائدهم يحي بن محمد جمع من حوله الزّنوج الحاقدين على المدينة و تاريخها، و على العرب و حكمهم، فدخلوها في جيش جرّار، و أحرقوا المدينة و نهبوا خيراتها.
يقول ابن الرومي متوجّعا و متفجّعا:

ذادَ عن مُقلتَيَّ لَذيذ المنامِ شغلُها عنها بالدُّموعِ السِّجامِ
أيُّ نَومٍ من بعدِ مَا حلَّ بِالبَصْـ رةِ منْ تِلكُم الهناتِ العِظامِ
أيُّ نومٍ من بعد ما هتكَ الزِّنْـ جُ جَهارًا محارمَ الإسلامِ
إنَّ هذا منَ الأمورِ لَأمرٌ كاد أنْ لا يقوم فِي الأَوهامِ
أقدمَ الخائنُ اللَّعينُ عليهَا وعلى اللهِ أَيَّما إقدامِ
و تسمَّى بِغيرِ حَقٍّ إمامًا لا هدى اللهُ سعيَه مِن إمامِ[2]

أما في الأندلس، فقد تعرضت مدنها و حواضرها للنّهب و الحرق و الثّورات و الفتن، بسبب ضعف المسلمين و تناحرهم الدّاخلي، ممّا سهّل على نصارى الإسبان الاستيلاء على مدنهم، فسقطت مدينة تلو الأخرى، ثم قضي على بلادهم نهائيا بسقوط آخر قلعة (غرناطة) في نهاية القرن التاسع الهجري،و بذلك محي الوجود العربي و الإسلامي بعد بقائهم فيها أكثر من ثمانية قرون.
فمنذ بداية القرن الخامس الهجري أو ما يسمّى (بعصر ملوك الطوائف) بدأت خيوط المأساة تتضح بتهاوي المدن الإسلامية، و في ذلك يقول المقري التّلمساني:« انقطعت الدولة الأمويّة من الأرض ,

---

[1] ابن قتيبة، الشعر و الشعراء، تحق: أحمد محمد شاكر،ج2 ، ص 855 (البيت الأول و الثاني أخذا من المراجع).
[2] ابن الرومي، الديوان، شرح : أحمد حسن بسج، ج 3 ، ط 3، دار الكتب العلمية ،بيروت،1423 هـ، 2002 م، ص338،339 .

وانتشر ملك الخلافة بالمغرب , وقام الطّوائف بعد انقراض الخلائف ، وانتزى الرؤساء من البربر و العرب و الموالي بالجهات، واقتسموا خطّتها، و تغلّب بعض على بعض»[1]

وهذا الواقع السياسي جعل الأندلسيين يفرون من أسنّة النّصارى الحاقدين، خوفا على دينهم و على أرواحهم، ففريق منهم هاجر إلى بلاد المغرب، و فريق اختار بلاد المشرق، أو كما قال أحد الدّارسين:« لقد قدّر على الأندلسيين أن يعيشوا محنة اغتراب مريرة بعد انتثار عقد الأندلس وسقوط معظم مدنه في أيدي النصارى، فقوّض كثير من الأندلسيين خيامهم، و رحلوا عن وطنهم، و تركوا معاهدهم و ديارهم، و فارقوا أهلهم، و أحبائهم إلى غير رجعة، و تقاذفتهم البلاد والفلوات ، و ذاقوا مرارة التّشتّت و الضياع ، فألقي بعضهم عصا التّسيار في المغرب و رحل بعضهم إلى المشرق و كانت تجربة الغربة عميقة في نفوسهم، فجرى على لسانهم شعر كثير يصور هذه النّزعة»[2]

ومن أشهر من بكى المدن، متفجّعا لحالها، مصوّرا سوء مآلها , وقد عاثت بها يد الزمن و الأعداء، ابن خفاجة الذي تحسّر على ضياع بلنسية ، فقال:

عاثَت بِساحتكِ الظِّبا يَا دَارُ ومحا مَحاسنكِ البِلى و النَّارُ
فإذا تردَّدَ في جنابِكِ نَاظرٌ طَال اعتبَارٌ فيكِ واستِعْبَارُ
أَرضٌ تَفاذفَتِ الخُطوبُ بِأَهْلِهَا وتَمخَّضَتْ بخرابِها الأَقدارُ
كتَبتْ يدُ الحَدثانِ فِي عَرَصاتِهَا لا أَنتِ أنتِ ولا الدِّيارُ دِيَارُ[3]

أما ابن الأبّار، فلم يكتف ببكاء بلنسية، بل راح يستصرخ حاكم افريقية السلطان أبي زكرياء ابن أبي حفص (وكان زيّان حاكم بلنسية قد أوفد كاتبه ابن الأبّار إليه لكي يغيث المدينة قبل ضياعها نهائيا) فقال:

أَدركْ بِخيلِكَ خيلِ اللهِ أَندلُسَا إِنَّ السَّبيلَ إلى مَنجَاتِها دَرسَا
وَهبْ لهَا من عَزيزِ النَّصرِ ما التَمَسـ ـتْ فلم يَزلْ منكَ عزُّ النَّصرِ مُلتَمَسا
يا للجزيرةِ أضحى أهلُها جزَرا لِلْحادثاتِ وَأَمسى جَدُّهَا تَعسَا
تَقاسمَ الرُّومُ لا نالت مَقاسمَهُم إلاَّ عقائِلها المَحجوبَة الأَنسَا
وفي بَلنسيةَ منها وقُرطبَة ما ينسفُ النَّفسَ أو ما ينزفُ النَّفسَا
مدائنُ حلَّهَا الإِشرَاكُ مبْتَسمًا جَذلانَ وارتحلَ الإيمانُ مبْتَئِسَا [1]

---

[1] المقري التلمساني، نفح الطيب في غصن الأندلس الرّطيب، تحق: إحسان عباس، ج1، دار صادر، بيروت، 1388هـ، 1968م، ص413.

[2] فوزي عيسى، في الأدب الأندلسي، ط1، دار المعرفة، الإسكندرية، مصر، 2008م، ص103.

[3] المقري التلمساني ، نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب ، مج 4، ص455.

أمّا القصيدة التي سارت بذكرها الرّكبان ، وتناقلها النّاس من زمان إلى زمان، لما فيها من صدق عاطفة ، ودقيق وصف، وبكاء يدمي القلوب على ما ألمّ من نكبات بمدن الأندلس قاطبة، قول أبي البقاء صالح بن شريف الرّندي، الذي يقول:

لكلِّ شيءٍ إذا مَا تمَّ نُقصانُ فَلا يُغرُّ بِطِيبِ العَيشِ إنسانُ
هي الأمورُ كما شَاهَدتُهَا دُولٌ من سرَّهُ زمنٌ ساءَتهُ أَزمانُ
وهذه الدَّارُ لا تُبقِي عَلى أَحدٍ ولا يدومُ على حالٍ لها شَانُ
دَهى الجزيرةَ أمرٌ لا عزاءَ له هَوى له أُحدٌ وانهدَ ثَهلانُ
أصابَها العينُ في الإسلامِ فامتحنتْ حتَّى خَلتْ مِنهُ أَقطارٌ وَبُلدانُ
فاسأَل بَلنسيةَ ما شأنُ مَرسيةَ وأينَ شاطبةَ أم أينَ جيَّانُ ؟
وأين حِمص و ما تَحوِيهِ من نُزَهٍ؟ ونهرُها العذبُ فيَّاضٌ و مَلآنُ
قواعدُ كُنَّ أركانَ البلادِ فَما عسى البقاءُ إذا لَم تبقَ أَركانُ؟ [2]

أما في المغرب، فقد بكى شعراء افريقية و المغرب مدنهم التي تعرّضت للنّهب و الحرق و الدّمار، و بخاصّة مدينة القيروان، التي تعرضت لفتنة كبيرة و دمار عظيم.
و كان المعزّ بن باديس قد خلع طاعة الفاطميين في القاهرة سنة 438هـ، و قطع اسم حكامهم من خطبة الجمعة، و جعل مكانهم فيها الخليفة العباسي، و حمل الناس على الرّجوع إلى مذهب الإمام مالك، بدل عقيدة الشّيعة الإسماعيلية. و انتقاما منه أرسل المستنصر الفاطمي أعراب بني هلال و سليم إلى بلاد المغرب، فخرّبوا و دمّروا، كما استولوا على القيروان و دمّروها شر تدمير[3]
قال ابن رشيق صاحب "العمدة" يبكي مدينته و أهلها:

كم كان فيها من كرامٍ سادةٍ بيضُ الوجوه شَوامخ الإيمانِ
متعاوِنينَ على الدِّيانةِ وَ التُّقَى للهِ في الأسرارِ و الإعلانِ
وأئمة جمعوُا العلومَ و هذَّبوا سنَن الحديثِ وَ مشكلِ القرآنِ
كانت تعدُّ القيروانُ بهِم إذا عدَّ المنابر زهرةَ البلدانِ

---

[1] نفسه، مج 4، ص457.

[2] المقري التلمساني، السابق، مج 4، ص487.

[3] ينظر : شوقي ضيف، تاريخ الأدب العربي، عصر الدول المتتابعة (الجزائر، المغرب, موريطانيا, السودان) ص37.

فَتكوا بأمّةِ أحمدٍ أَتَراهُمُ أمِنوا عقابَ اللهِ في رَمضانِ[1]

أما أبو الحسن الحصري الضّرير، فقد تحسّر على ماضي القيروان،وتأسّف لحالها , فقال:

ألا سقى اللهُ أرضَ القيروانِ حيًّا كأنّهُ عَبراتي المُستهلات
لا يَشمتنَّ بها الأعداءُ إنْ رُزئتْ إنَّ الكسوفَ في الشَّمسِ أوقاتُ
و لم يزل قابضُ الدنيا و باسطُها فيما يشاءُ له محوثوا مدنهمٌ و إثباتُ
هل مطمعٌ أن تُردّ القيروان لنا وصبرة فَالمعلَّى فالحَنِيَّاتُ[2]

فالشعراء في المشرق و البلاد المغرب والأندلس ، بكوا على مدنهم وتفجعوا على ممالكهم ، كما صوروا الفظائع والمآسي التي عايشها المسلمون ، وما كابدوه من أسر وتشريد وقتل ، فراحوا يطلقون صيحات الاستغاثة والاستنجاد إلى الملوك المسلمين في أماكن أخرى.

أما القصيدة فكانت أكثر تعبيرا عن الواقع المأساوي ، وأصدق في نقل مشاهد الحزن والدمار ، مما يجعل القارئ يتفاعل مع هذه النصوص وينفعل.

---

[1] ابن رشيق القيرواني، الديوان، جمع و ترتيب: عبد الرحمان ياغي، دار الثقافة، بيروت، 1409هـ،1989 م ، ص204، 205، 206، 207، 208.

[2] ابن بسام، الذخيرة في محاسن الجزيرة ، تحق : إحسان عبّاس ، قسم 4، ج1، دار الثقافة، بيروت، ص277.